أماني الطويل*

لماذا تصاعد النفوذ الروسي؟ وماهي تداعياته على الشرق الأوسط؟

المقدمة

في غضون العقد الأخير، تعاظم دور روسيا على صعيد النظام الدولي، وذلك نتيجة عدد من العوامل المرتبطة بمواردها الاقتصادية التي استطاعت هيكلتها على نحو مؤثر اعتبارًا من العام ٢٠٠٠، وكذلك حالة التنسيق الذي يصل حدّ التحالف مع الصين، خصوصًا في ما يتعلق باستحداث آليات تنموية واقتصادية دولية مناظرة للآليات الغربية التي تتمثل في البنك وصندوق النقد الدوليين. وقد ساهمت الإستراتيجيات الروسية بالإجمال في زيادة النفوذ الروسي على الصعيد الدولي، كما أصبحت لاعبًا دوليًا مؤثرًا في الأزمات العالمية والإقليمية.واجهت روسيا، في هذا السياق، تحديات أساسية من الولايات المتحدة الأميركية وحلف الناتو في منطقة شرق أوروبا عمومًا وأوكرانيا تحديدًا، وهو ما يعد السبب الرئيس للحرب الدائرة حاليًا في أوكرانيا، الحرب التي تؤثر حاليًا على مجمل التفاعلات الدولية، خصوصًا بعد ضم أربع مناطق أوكرانية لروسيا الاتحادية، كما تنعكس إقليميًا على كافة الأزمات السابقة على حرب أوكرانيا واللاحقة لها خصوصًا في منطقتي الشرق الأوسط وشرق أفريقيا وهما

* د. أماني الطويل هي مستشارة مركز الأهرام للدراسات السياسية والإستراتيجية في القاهرة ومديرة البرنامج الأفريقي في المركز ورئيسة تحرير سلسلة أفريقيات.

التحقت روسيا بالآليات الصينية العالمية لبناء نفوذ الأولى، وهو ما انعكس على الوزن النسبي للقدرات الروسية بالإيجاب. فعلى صعيد مواز لبناء القدرات العسكرية الروسية على المستوى الداخلي، استحدثت كل من الصين وروسيا مجموعة من الآليات المناظرة لمنظمات دولية يسيطر عليها الغرب، منها منظمتا شنغهاي و"بريكس".

المنطقتان المتحكمتان في عدد من الممرات البحرية والمضائق التي يعتمد عليها نقل الطاقة عبر العالم، فضلًا عن حركة التجارة الدولية بشكل عام. هذا ما يرفع الأهمية الإستراتيجية للمنطقتين في الصراعات الدولية والتنافسية العالمية حول النفوذ والموارد، وكذلك يرفع من مستوى أهميتهما الإستراتيجية لروسيا التي تعاني من امتدادات برية فقط في حدودها الغربية، وتعاني من محدودية واجهاتها البحرية في المياه الدافئة.

تركز هذه المقالة على النفوذ الروسي المتصاعد بالتركيز على منطقة الشرق الأوسط. في القسم الأول، تنظر المقالة في أسباب صعود النفوذ الروسي في المنطقة. في القسم الثاني، تستعرض الآليات والأدوات التي تستخدمها روسيا لتعزيز نفوذها. وفي القسم الثالث، تحلل تداعيات تعاظم النفوذ الروسي. في القسم الرابع والأخير، تركز على علاقات روسيا مع أطراف مختلفة في المنطقة، من بينها إسرائيل.

أولًا: أسباب صعود النفوذ الروسي

تراجعت أمريكا عن وثيقة "روسيا- الناتو" التي وُقّعت في العام ١٩٩٧ والتي تلزم حلف الناتو بعدم نشر عدد كبير من قواته على أراضي شرق أوروبا بشكل دائم، حيث عمدت واشنطن منذ بداية العقد الأول في الألفية الثالثة إلى تطويق موسكو في أوروبا الشرقية، كما تطور هذا التطويق إلى دول الجوار المباشر مثل أوكرانيا التي اعتبرت موسكو أن عدم حيادها وانحيازها للغرب بمثابة تهديد لأمنها القومي.

ويمكن الإشارة إلى أن الاحتقان بين الأطراف ناتج عن اتجاه واشنطن لتركيز آلياتها القتالية بالقرب من الحدود الروسية في قواعد عسكرية بدول شرق أوروبا والبلطيق، وإعادة الأسلحة النووية الأميركية إلى أراضي بريطانيا، وكذلك استحداث ستة "مراكز قيادة" متعددة الجنسيات في شرق أوروبا، في كل من بلغاريا وإستونيا ولاتفيا وليتوانيا وبولندا ورومانيا، فضلًا عن تشكيل قوة تدخل سريع، تشارك فيها فرنسا وألمانيا وإيطاليا وإسبانيا وبريطانيا وبولندا، وذلك ردًا على ما اعتبره الحلف "أعمالًا عدوانية تقوم بها روسيا" في أوكرانيا.[1]

أما على المستوى السياسي فإن دعم واشنطن لسياسة "الأبواب المفتوحة" لحلف الناتو، وحق جورجيا وأوكرانيا في تقرير مستقبلهم كان استفزازًا إضافيًا لروسيا. وطبقًا لحالة تنامي التوتر بين روسيا والغرب فقد تم إعلان تجديد العقيدة العسكرية الروسية الرابعة استباقًا لموعدها بست سنوات كاملة، حيث دشنت في العام ٢٠١٤، وهي العقيدة التي تم فيها اعتبار الناتو مصدر خطر رئيس على الأمن القومي الروسي. ورغم تأكيد العقيدة العسكرية الروسية على طابعها الدفاعي وعدم التدخل عسكرياً إلا بعد استنفاد كل الوسائل السلمية، فإنها أكدت حق روسيا في الدفاع عن أمنها ومواجهة التهديدات السابقة بحسم وقوة، حيث خولت روسيا حق استخدام السلاح النووي ضد أي خطر يهدد وجود الدولة.

ولعل تصاعد التوتر بين روسيا والناتو كان وراء إلغاء زيارة أوباما لموسكو في العام ٢٠١٣. وبداية شتاء قاسٍ في العلاقات بين روسيا والغرب أنتجت الحرب في أوكرانيا التي يمكن تصنيفها على أنها صراع عالمي جديد قد يماثل بيئة الصراع العالمي ما قبل الحرب العالمية الأولى،[2] خصوصًا إذا تم رصد أن العقيدة العسكرية الروسية التي صدق عليها الرئيس بوتين يوم ٢٦ كانون الأول ٢٠١٤، وتعد

بوتين وولي العهد السعودي محمد بن سلمان في قمة مجموعة العشرين في العام ٢٠١٨. (رويترز)

الرابعة منذ تفكك الاتحاد السوفييتي، حيث تم استباق موعد التجديد بست سنوات كاملة في ضوء مجموعة من المستجدات والتحديات في مقدمتها تمدد حلف شمال الأطلسي (الناتو).

أما على الصعيد الاقتصادي، كان بناء القدرات الاقتصادية الروسية بعد انهيار الاتحاد السوفييتي أحد أسباب تصاعد النفوذ الروسي، حيث تعد روسيا أكبر مصدري البترول والغاز بما يزيد عن٥٧٪ على الصعيد العالمي، حيث ارتفع حجم تجارة روسيا الخارجية خلال ٢٠٢١ إلى ٧٨٩,٤ مليار دولار، بزيادة نسبتها ٣٧,٩٪ عن العام ٢٠٢٠. وسجل احتياطي المركزي الروسي ٦٤٣,٢ مليار دولار، في ٢٥ شباط ٢٠٢٢، وهو ما يعد رقمًا قياسيًا، إذ يعادل أكثر من ١٧ شهرًا من عائدات الصادرات الروسية.

تصدر روسيا نحو ٥ ملايين برميل يوميًا من النفط الخام، و٢,٥ مليون برميل يوميًا من المنتجات البترولية المكررة بما يمثل نحو ١٠٪ من تجارة النفط العالمية؛ أي أكثر من ٧٠٠ مليون دولار يوميًا من النقد النفطي. كما تصدر روسيا ٢٣ مليار قدم مكعبة يوميًا من صادرات الغاز الطبيعي (نحو مليارى قدم مكعبة في اليوم كانت تمر عبر أوكرانيا) بقيمة ٤٠٠ مليون دولار أخرى. ولعل المقاربة الاقتصادية الروسية الأهم هي إعادة التقويم بالذهب كبديل للدولار بما يشكله ذلك من تهديد لاقتصادها في ضوء عدم استقرار علاقتها بالولايات المتحدة الأميركية، حيث تمتلك روسيا حاليًا ما قيمته ١٣٠ مليار دولار من الذهب مقارنة بمليار واحد فقط في العام ١٩٩٥، كما أن صادراتها لكل من البرازيل والهند وجنوب أفريقيا والصين تتم بالعملة الروسية. .

ثانيا: آليات صعود النفوذ الروسي

التحقت روسيا بالآليات الصينية العالمية لبناء نفوذ الأولى، وهو ما انعكس على الوزن النسبي للقدرات الروسية بالإيجاب. فعلى صعيد مواز لبناء القدرات العسكرية الروسية على المستوى الداخلي، استحدثت كل من الصين وروسيا مجموعة من الآليات المناظرة لمنظمات دولية يسيطر عليها الغرب، منها منظمتا شنغهاي و"بريكس"، وقد تأسست الأولى في مدينة شنغهاي الصينية في العام١٩٩٦. وتضم حاليًا ثماني

دول هـي: الصـين والهنـد وكازاخسـتان وقرغيزسـتان وروسـيا وباكسـتان وطاجيكسـتان وأوزبكسـتان، وأربـع دول بصفـة مراقـب ترغـب بـأن تصبـح كاملـة العضويـة وهـي: أفغانسـتان، وبيلاروسـيا، وإيـران، ومنغوليـا. كمـا تقيـم المنظمـة علاقـات مـع سـت دول أخـرى بصفتهـا "شركاء الحـوار"، وهـي: أرمينيـا وأذربيجـان وكمبوديـا ونيبـال وسري لانـكا وتركيـا، وفي العـام ٢٠٢١ تقـرر البـدء بعمليـة ضـم إيـران إلى المنظمـة كدولـة كاملـة العضويـة. تأسسـت هـذه المجموعـة بهـدف أمنـي رئيـس هـو التعـاون في مجـال محاربـة الحـركات المتطرفـة والإرهابيـة، ومحاربـة الجريمـة وتجـارة المخـدرات، وقـد توسـعت أيضـاً في قمـة "أوفـا" التـي انعقـدت بروسـيا في العـام ٢٠١٣ لتضـم الهنـد وباكسـتان إلى جانـب روسـيا والصـين وأربـع مـن دول آسـيا الوسـطى، لتصبـح فاعـلًا أمنيًـا مؤثـرًا في منطقـة أوراسـيا، وليـبرز نـادٍ نـووي جديـد يضـم روسـيا والصـين والهنـد وباكسـتان في مواجهـة النـادي النـووي التقليـدي الـذي تتزعمـه الولايـات المتحـدة ويضـم حلفاءهـا الغربيـين في حلـف شـمال الأطلـسي.

أمـا الآليـة الثانيـة التـي تعتمـد عليهـا روسـيا فهـي مجموعـة "بريكـس" التـي ظهـرت للوجـود عـام ٢٠٠٩، وتضـم روسـيا والصـين والهنـد والبرازيـل، وانضمـت إليهـا جنـوب أفريقيـا عـام ٢٠١٠، بينمـا مـن المتوقـع أن تضـم دولتـين مـن أهـم دول الـشرق الأوسـط بنـاء عـلى طلبهمـا همـا مـصر والمملكـة السـعودية طبقًـا لتصريحـات رئيسـة المجموعـة في تمـوز المـاضي .

تبلـورت فكـرة "بريكـس" مـن وجـود حاجـة إلى صـوت للاقتصـادات الناشـئة في المجتمـع الـدولي خصوصًـا أن هـذه المجموعـة تمثـل ٤١ ٪مـن سـكان العالـم، أي أكثـر تسـع مـرات عـلى الأقـل مـن سـكان الولايـات المتحـدة، وتُشـكل مسـاحتها نحـو ٢٩ في المائـة مـن مسـاحة العالم، وهـي كذلـك دول أعضـاء في مجموعة العشريـن التـي تمثـل أقـوى اقتصـادات العالم. ويشـكل الناتـج القومـي لـدول "بريكـس" ٢٧ تريليـون دولار، قبـل انضمـام كل مـن مـصر والسـعودية؛ أي مـا يزيـد عـلى ربـع الناتـج القومـي العالمـي. وتشـير التوقعـات إلى أن العقـد القـادم سيشـهد زيـادة الناتـج القومـي لمجموعـة "بريكـس" ليصـل إلى نصـف الناتـج القومـي العالمـي؛ أي أنـه سـيتفوق عـلى اقتصـاد مجموعة السـبع. كمـا أن عـدد سـكان "بريكـس" البالـغ ٣,٢ مليار نسـمة (وهـم في ازديـاد) أكثـر مـن ثلاثـة أضعـاف عـدد سـكان مجموعـة السـبع البالـغ ٩٨٧ مليـون نسـمة.

وعـلى الرغـم مـن الـوزن الاقتصـادي والديمغـرافي لمجموعتـي "بريكـس" وشـنغهاي، فـإن تأثيرهمـا وتمثيلهمـا في المنظمـات الدوليـة مثـل البنـك الـدولي وصنـدوق النقـد الـدولي لا يقـارن بالـدول الأوروبيـة التـي يتـم دعمهـا أكثـر مـن غيرهـا، مـن هنـا أنشـأت مجموعـة "بريكـس" «بنـك التنميـة الجديـد» (NDB) عـام ٢٠١٥ بـرأس مـال بلـغ ٥٠ مليـار دولار، وبحصـص متسـاوية بـين الـدول الخمـس. يهـدف هـذا البنـك إلى دعـم مشـاريع البنـى التحتيـة في الـدول الأعضـاء في كل مـن "بريكـس" وشـنغهاي، حيـث دعـم خـلال الخمـس سـنوات الأخـيرة ٧٠ مشروعًـا للبنـى التحتيـة بأكثـر مـن ٢٥ مليـار دولار، ممـا أثبـت مصداقيـة عاليـة لهـذه المجموعـة عـلى الصعيـد العالمـي.

أمـا عـلى الصعيـد الإجرائـي، فقـد عمـدت مجموعتـا "بريكـس" وشـنغهاي أن تكـون قممهمـا موازيـة ومناظـرة للمنظمـات العالميـة الغربيـة حيـث جـاء انعقـاد الاجتمـاع الرابـع عـشر في الصـين أواخـر شـهر آب ٢٠٢٢، تزامنـا مـع انعقـاد اجتمـاع الـدول السـبع في ألمانيـا، واجتمـاع حلـف الناتـو في إسـبانيا.[٣] وهـي القمـة التـي تقدمـت فيهـا مـصر وقطـر والمملكـة العربيـة السـعودية بطلبـات للحصـول عـلى صفـة "شركاء الحـوار" في منظمـة شـنغهاي. ويمكـن القـول إن كل مـن منظمتـي "بريكـس" وشـنغهاي قـد بـرزا خـلال الفـترة الماضيـة كفواعـل دوليـة مهمـة ومؤثـرة عـلى الصعيديـن الاقتصـادي والأمنـي، فـكل دول "بريكـس" أعضـاء في الهيئـات الدوليـة مثـل اتفاقيـة التجـارة العالميـة ومجموعـة العشريـن. UNFCC، واتفاقيـة تغـير المنـاخ. OMC

وطبقًـا لذلـك، فـإن اسـتقرار الـشراكات والتحالفـات الاقتصاديـة والأمنيـة الروسـية في إطارهمـا، فضـلًا عـن حجـم موازنتهمـا البالغـة ٢٠٠ مليـار دولار، كلهـا تعـد مـؤشرات عـلى الصعـود الـروسي كقطـب عالمـي، خصوصًـا وأن ظهـور دول مجموعـة بريكـس كأقطـاب جديـدة للتنميـة مـن خـلال تحقيقهـا نمـوًا اقتصاديًـا مسـتدامًا، وزيـادة القـدرات العسـكرية، وفعاليـة التوسـع في مجـال التكنولوجيـا الحديثـة، وزيـادة معـدل السـكان جعلهـا توجـه حجمهـا الضخـم نحـو المصـادر السياسـية والعسـكرية ومحاولـة إعـادة توزيـع القـوى

في العالم، وتشكيل نظام متعدد الأقطاب، فظهور هذه الدول كفاعلين مؤثرين في النسق الدولي، جعل القوة لا تقتصر على الفاعلين التقليديين بزعامة الولايات المتحدة الأميركية، بل تم تصنيفهم كلاعبين جدد يمكن أن يؤثروا على ديناميكيات القوة العالمية، بما يشكله ذلك من تحدٍ لوضع الولايات المتحدة في هيكل الهيمنة العالمي .

وفي سياق موازٍ للآليات المشتركة مع الصين امتلكت روسيا آلياتها الخاصة، ومن ذلك الآليات العسكرية، حيث اعتمدت على فواعل عسكرية شبه مستقلة على الأرض وتصدير التكنولوجيا العسكرية، وتعد شركة فاغنر من أهم الآليات الروسية الراهنة في التفاعل مع الخارج، حيث بدأت الشركة هذه المسيرة عام ٢٠١٣ مع احتدام الأزمة السورية، وتنتشر حاليًا في ٢٣ دولة، وتعد آلية منخفضة التكاليف السياسية والاقتصادية بالنسبة لروسيا، وذلك عبر علاقة غير مباشرة بالحكومة الروسية، وبالتالي فالتكاليف السياسية منخفضة، فضلا عن انخفاض تكاليف عملها الاقتصادية مقارنة بالشركات الغربية المثيلة مثل black water الأميركية حيث يتقاضى المرتزق الأميركي أربعة أضعاف أجر المرتزق الروسي، وربما يكون توصيف بوتين لها واقعيًا لكونها وسيلة لتنفيذ المصالح الوطنية دون مشاركة مباشرة من الحكومة الروسية.[٤]

وتتعدد المهام التي تضطلع بها فاغنر في أفريقيا ما بين سياسية وعسكرية وأمنية وإعلامية، فإلى جانب المشاركة في عمليات القتال في الخطوط الأمامية، توفر الشركة الروسية التدريب على الأسلحة ودعم الشرطة وأجهزة الاستخبارات المدنية وعمليات التأمين الشخصي لكبار الشخصيات السياسية. وفي هذا السياق تنشط فاغنر في مجالي جمع المعلومات وتوجيه الرأي العام داخل الدول الأفريقية، وذلك من خلال منصات التواصل الاجتماعي، حيث تمتلك فاغنر ٧ حسابات على Instagram و٧٣ صفحة على Facebook بلغ عدد متابعيها أكثر ١,٧٢ مليون حساب، يركز محتواها على المصالح الروسية، ولعل أنشطة فاغنر في السودان تؤشر إلى مساندة السلطة الراهنة مقابل تحالف المعارضة السودانية.[٥]

وقد وفر هذا الانتشار لقوات شركة فاغنر الأمنية بيئة آمنة للاستثمارات الروسية في البيئة الإفريقية المضطربة تقليديًا، فنشطت الاستثمارات المباشرة الروسية في السودان - على سبيل المثال لا الحصر - التي تهتم فيها روسيا بالتعدين . وفي الأخير، يبدو أن حجم العوائد المالية المجزية لشركة فاغنر قد ساهم بشكل مباشر في فتح الباب أمام جيل ثانٍ من الشركات العسكرية الروسية الخاصة، حيث بدأت شركتان جديدتان هما باتريوت Patriot وسيو Sew للخدمات الأمنية عملياتهما في أفريقيا منذ العام ٢٠١٨.

أما على صعيد تصدير التكنولوجيا فقد باتت موسكو المورّد الرئيسَ للتكنولوجيا العسكرية للدول الإفريقية، ومن أهم موردي الأسلحة لدول الشرق الأوسط، حيث تجاوزت مبيعات الولايات المتحدة الأميركية. وكانت النسبة الأكبر لمبيعات الأسلحة الروسية إلى الجزائر (٥٨,٦٤٪) ثم مصر (٢٥,٩٦٪)، فأوغندا (٥,١٧٪)، والسودان (٢,٦٣ ٪) وأنغولا (٢,١١٪) .. وتشير الإحصائيات أن أكبر أربعة موردي أسلحة لأفريقيا في العام ٢٠١٧ هم: روسيا في المرتبة الأولى بنسبة ٣٧,٦٪ تليها الولايات المتحدة ١٦,٣٪ وفرنسا ١٤,٦٪ ثم الصين ٩,٢٪.[٦] وقد تطورت مبيعات الأسلحة الروسية للدول الإفريقية خلال السنوات اللاحقة طبقا للجدول الآتي:

صادرات الأسلحة من روسيا والولايات المتحدة الأمريكية وفرنسا والصين إلى إفريقيا

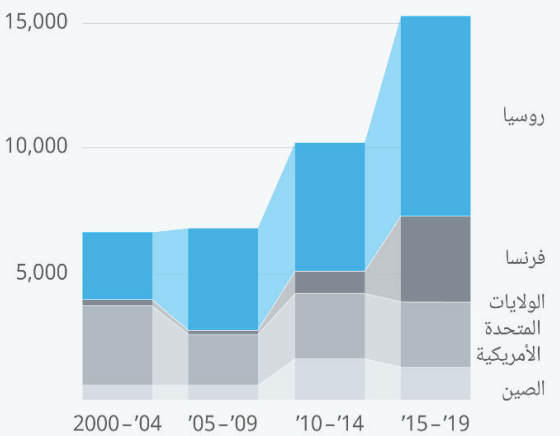

القيمة بالملايين بناء على مؤشر الاتجاه TIV، من أجل تسعير القدرة العسكرية لعمليات نقل الأسلحة بدلا من القيمة المادية

المصدر: معهد ستوكهولوم الدولي لأبحاث السلام

وقد نشطت روسيا ثالثًا في قطاع الطاقة بدول الشرق الأوسط وأفريقيا في ما يمكن تسميته بدبلوماسية الطاقة التي تشكل إحدى الروافع الرئيسة للنفوذ الروسي حاليًا، فالاستثمارات الرئيسة نجدها في النفط والغاز والتعدين والطاقة النووية. وتقود هذه الاستثمارات شركات مثل جازبروم ووكويل وروستيك وروساتوم التي لها استثمارات في الجزائر ومصر والسودان وجنوب أفريقيا وأوغندا وأنغولا، على أن الوجود الروسي في قطاع الطاقة قد يجد منافسة حادة من أوروبا نتيجة احتياجها لتوفير بدائل للغاز الروسي، وهو ما دفع ربما رئيس الوزراء الإيطالي ماريو دراجي لتنظيم جولة في عدد من الدول الإفريقية، كما سوف تحوز كل من مصر والجزائر أهمية إستراتيجية لأوروبا خصوصًا بعد أن أقدمت روسيا بالفعل على قطع إمدادات الغاز عن فنلندا، كما أنه من المتوقع أن تحوز الطاقة الشمسية في دول الساحل الإفريقي على اهتمام أوروبي في المرحلة القادمة.

ثالثًا: تداعيات صعود النفوذ الروسي في الشرق الأوسط

انفتحت مجموعة "بريكس" في تفاعلاتها مع محيطها الإقليمي والدولي وهو ما يمكن رصده على صعيد الشرق الأوسط من لقاء زعماء "بريكس" مع دول الاتحاد الأفريقي عام ٢٠١٣، حيث كانت القمة في جنوب أفريقيا. وفي أيار ٢٠٢٢ تم توسيع دائرة الحوار وتوسيع عضوية المجموعة حيث انضم إلى مشاورات "بريكس بلس" من دول الشرق الأوسط ممثلون عن كل من مصر ودولة الإمارات والمملكة السعودية إلى جانب نيجيريا وتايلاند والسنغال وإندونيسيا وكازاخستان وكلها دول تعتبر أعضاء محتملين في "بريكس".

يمكن في هذا السياق رصد التأثيرات المباشرة للصعود الروسي في النظام الدولي وزيادة تأثيره على دول الشرق الأوسط في عدد من المؤشرات، منها مضمون خطابات دول الشرق الأوسط في قمة الرئيس الأميركي جو بايدن بالمملكة السعودية حيث لوحظ أن خطاب ولي العهد السعودي محمد بن سلمان جاء محددًا سقف المملكة الأعلى في ما يتعلق بإمدادات الطاقة مفارقًا التوقعات الأميركية في هذا الملف، حيث طالب بايدن برفع طاقة المملكة الإنتاجية من البترول لحدود لم تقبلها الرياض، وذلك لمواجهة تداعيات خروج روسيا من سوق الطاقة الغربي، أما الرئيس المصري عبد الفتاح السيسي فقد أشار إلى الدور الغربي في تفتيت الدول والتسبب في عدم الاستقرار الإقليمي.

شكلت زيارة وزير الخارجية الروسي سيرجي لافروف إلى شمال أفريقيا وشرقها في منتصف عام ٢٠٢٢ مؤشرًا إضافيًا على وجود اتجاه روسي بالعودة إلى منطقة الشرق الأوسط وشرق أفريقيا، حيث تم التأكيد في مصر على الالتزام الروسي بإنشاء محطة الضبعة النووية، كما تم التطرق إلى أزمة سد النهضة كأزمة إقليمية تتطلب جهدًا دوليًا.

رابعا: الأدوار الروسية في الشرق الأوسط

أ- العلاقة الروسية -السورية

يمكن القول إن المقاربات الروسية في الأزمة السورية أثبتت صمودها، مقابل المقاربات الأميركية، ذلك أن استمرار الرئيس السوري بشار الأسد في موقعه يعد نجاحًا للرؤية الروسية التي بلورت موقفها أن استمراره هو شرط عدم تفتت الكيان السوري، على الشاكلة التي جرت في كل من ليبيا والعراق.

في هذا السياق، يعد التدخل الروسي في أزمتي سورية وليبيا من المؤشرات المهمة على تصاعد الأدوار الروسية في المنطقة، حيث قادت روسيا حراكًا دبلوماسيًا في إطار رؤية تهدف إلى "مصالحة ما" بين الأطراف الإقليمية للأزمة السورية انطلاقًا من أن التحديات الخطيرة التي تتهددها جميعًا قد تمثل حافزًا لإعادة إطلاق العلاقات فيما بينها، وتشكيل تحالف واسع ضد تنظيم "داعش"، الذى أصبح تمدده المتواصل خطرًا حقيقيًا على دول المنطقة كلها.

ونظرًا لتعقد الأزمة السورية وتناقض الرؤى والتوجهات بشأنها، فقد أطلق وزير الخارجية السوري وليد المعلم في هذا التوقيت، على المبادرة الروسية "معجزة بوتين الشرق أوسطية" إذا تمت،

في سياق موازٍ للآليات المشتركة مع الصين، امتلكت روسيا آلياتها الخاصة، ومن ذلك الآليات العسكرية، حيث اعتمدت على فواعل عسكرية شبه مستقلة على الأرض وتصدير التكنولوجيا العسكرية، وتعد شركة فاغنر من أهم الآليات الروسية الراهنة في التفاعل مع الخارج، حيث بدأت الشركة هذه المسيرة عام ٢٠١٣ مع احتدام الأزمة السورية، وتنتشر حاليًا في ٢٣ دولة.

وأبدى استعداد سورية الدخول في أي تحالف تقوده وترعاه روسيا. ولا يتم الحديث هنا عن قوات مشتركة أو تدخل عسكري وإنما تعاون وتنسيق استخباراتي وأمني، وتفاهمات سياسية قادت في النهاية ضمن جهود بأوزان أقل إلى تسوية نسبية للأزمة السورية باعتبارها المعضلة الأم والحاضنة لتمدد الارهاب.

في هذا الإطار تحركت روسيا على محورين، الأول الانفتاح على مختلف الأطراف الدولية والإقليمية المعنية بالأزمة ومحاولة التقريب بينها. أما المحور الثاني، فيتمثل في سعي روسيا نحو لم شمل المعارضة السورية ومساعدتها على بلورة رؤية مشتركة لمستقبل سورية، حيث كان للدبلوماسية الروسية دور في التوصل لخطة كوفي أنان للتسوية في سورية. وكانت موسكو صاحبة مبادرة عقد مؤتمر جنيف الدولي للتسوية في سورية تحت رعاية الأمم المتحدة، كما طرحت روسيا مبادرة تدمير الأسلحة الكيماوية السورية مقابل وقف الضربة العسكرية الأميركية لسورية وعقد مؤتمر جنيف٢. ودعت روسيا لعقد مؤتمر جنيف ٣ بحضور كل الأطراف الدولية والإقليمية المعنية بالأزمة إلى جانب المعارضة والحكومة السورية.

في هذا السياق، بدأت حملة عسكرية روسية في سورية بتنسيق استخباري مع كل من إيران والعراق فضلًا عن الجيش السوري، حيث بدأت الضربات الجوية الروسية على الفور ضد مواقع تنظيم "داعش" الإرهابي وغيره من التنظيمات الإرهابية في سورية. ويبدو أن الحملة الروسية قد تحركت ضمن اعتبارات حماية الأمن القومي الروسي مع تصاعد التهديد الداعشي وانعكاسات ذلك على الداخل الروسي خاصة مع تنامي صلات التنظيم مع نظرائه في القوقاز، وتزايد أعداد المنضمين إلى صفوفه من الروس ودول آسيا الوسطى. فوفقًا لبيانات هيئة الأمن الروسية هناك ما يزيد عن ٢٤٠٠ من مواطني روسيا حاربوا في صفوف تنظيم "داعش". ومن ثم فإن خطر داعش لا يتهدد سورية والمنطقة فحسب، ولكن روسيا أيضاً، خاصة وأن التنظيم أعلن روسيا عدوًا له وأعلن "الجهاد" ضدها.

وطبقًا لخبراء عسكريين، فإن روسيا قد وجهت في حربها ضد داعش حتى العام ٢٠١٥، ١١٢ غارة جوية، وأطلقت ٢٦ صاروخًا مجنحًا من السفن الروسية في بحر قزوين إلى أهداف في سورية مباشرة عبر أجواء إيران والعراق بالتنسيق مع الدولتين باستخدام منظومة "كاليبر إن كا". وقد نجحت هذه الغارات في تدمير ٨٤ موقعًا لداعش تتضمن مراكز قيادة ومخازن سلاح ومستودعات ذخيرة وقواعد أسلحة ومراكز اتصالات ومعامل لصنع المتفجرات وخزانات وقود، إلى جانب معدات وآلات عسكرية ونقاط ارتكاز عدة، تمثل في مجموعها، وفق بعض التقديرات، نحو ٤٠٪ من البنى التحتية التابعة لتنظيم داعش.[٧]

وبطبيعة الحال انعكس التعاون الروسي مع النظام السوري على الصعيد الاقتصادي، حيث تطورت العلاقات بين البلدين في إطار عدد من المشروعات المهمة منها: الاهتمام بتطوير التنقيب عن النفط والغاز في سورية، وإنشاء قرية صادرات وواردات في اللاذقية، وكذلك افتتاح فروع للمصارف الروسية في سورية، وتمويل المشاريع بين البلدين بالعملات الوطنية، فضلًا عن إطلاق الممر الأخضر البحري بين البلدين.

يمكن القول إن التناقض الروسي الخليجي في ما يتعلق بالأزمة السورية قد أثر مرحليًا على العلاقات بين الطرفين وذلك مع الرؤية الخليجية بضرورة إزاحة بشار الأسد من المشهد السوري، المتوافقة في مع الرؤية الغربية ، لكن اعتبارًا من العام ٢٠١٣ تم تجاوز هذا التوتر نسبيًا.

ب- العلاقات الروسية مع دول الخليج

إن العلاقة التي تربط روسيا ودول الخليج العربية ترتبط بشكل كبير بالمتغيرات الإقليمية المحيطة بالمنطقة، والتحولات التي تظهر في النظام السياسي الدولي، حيث إن التحول الذي حدث في النظام الدولي، بعد تفكك الاتحاد السوفييتي في العام ١٩٩١، كان له أثره الكبير في حدوث تغيرات واضحة في الإستراتيجية الروسية تجاه منطقة الشرق الأوسط، ومن ضمنها منطقة الخليج العربي.

في هذا السياق، يمكن القول إن محددات العلاقات الروسية الخليجية تدور حول النفط، حيث يعتبر الطرفان مؤثرين على سوق النفط العالمي، ومن هنا يكون من الأهمية بمكان التنسيق لتجنب الأضرار المرتبطة بعدم التوافق على التسعير.

كما تشكل العلاقة مع إيران أحد المحددات في العلاقة بين الطرفين في ضوء الصراع الخليجي الإيراني الممتد منذ ثلاثة عقود تقريبًا، وأصبحت له تداعياته في منطقة الشرق الأوسط خصوصًا في اليمن ولبنان وشرق أفريقيا .

في هذا السياق، يمكن القول إن التناقض الروسي الخليجي في ما يتعلق بالأزمة السورية قد أثر مرحليًا على العلاقات بين الطرفين وذلك مع الرؤية الخليجية بضرورة إزاحة بشار الأسد من المشهد السوري، المتوافقة في مع الرؤية الغربية ، لكن اعتبارًا من العام ٢٠١٣ تم تجاوز هذا التوتر نسبيًا، وذلك مع النشاط الدبلوماسي الروسي في منطقة الشرق الأوسط عبر الدبلوماسية الرئاسية الروسية وزيارات الرئيس الروسي بوتين للشرق الأوسط ، حيث شهدت العلاقات الروسية الخليجية نقلة نوعية مع زيارة ولي العهد السعودي الأمير محمد بن سلمان لروسيا بعد نحو أربع سنوات من تجميد العلاقات بين موسكو والرياض على خلفية تباعد مواقف البلدين من الأزمة السورية. وقد شارك الأمير في فعاليات منتدى سان بطرسبرج الاقتصادي، حيث فرضت الملفات السياسية نفسها على المباحثات الثنائية نظرًا لإلحاحها ومحوريتها، وفي مقدمتها الملف اليمني وملف الطاقة وأسعار النفط، وسبل مواجهة الإرهاب في المنطقة وتمدد تنظيم الدولة الإسلامية "داعش". كما كان لمشاركة وفد عسكري سعودي رافق الأمير محمد بن سلمان في فعاليات منتدى "الجيش الروسي -٢٠١٥" الذي عُقد بضواحي موسكو أهميتها الخاصة، حيث أمكن مع حلول العام ٢٠١٥ تجاوز أزمة الحملة العسكرية الروسية على سورية وطبيعة رؤية الخليج لها وذلك على هامش فعاليات سباق السيارات "فورمولا - ١" التي حضرها ولي العهد السعودي في منتجع سوتشي الروسي، ذلك أن المباحثات بين الجانبين الروسي والخليجي تناولت كافة القضايا الإستراتيجية والسياسية المهمة وعكست تفاهمًا واضحًا حول الملف السوري.

في هذا السياق، تم بلورة أكثر من منتدى أعمال بين روسيا ودول الخليج كل على حدة، وتم عقد ١٥ اتفاقية عسكرية واقتصادية بين الرياض وموسكو وهو ما تكرر مع دول خليجية أخرى .كما تم تمويل خليجي لصفقات عسكرية استفادت منها كل من مصر تضمنت ٢٤ طائرة ميج ٢٩ وأنظمة صاروخية إم تو، كما أن دولة الإمارات تطرح تعاونًا عسكريًا مشتركًا مع روسيا في إطار تطوير أنواع من الصواريخ فضلًا عن التسليح الروسي للبحرين بمضادات للدبابات من نظام كورنيت آر أم. [٨]

رسم تعبيري عن التمدد الروسي، (عن"فورن بوليسي").

ج- العلاقات الروسية - المصرية

اعتبارًا من العام ٢٠١٥ تم تبادل الزيارات الرئاسية بين القاهرة وموسكو، وكانت مصر الشريك الرئيس لموسكو في القمة الروسية الإفريقية الأولى في العام٢٠١٩ التي انعقدت في سوتشي. ويمكن القول إن التعاون العسكري المصري الروسي يتصدر مشهد التعاون الثنائي بين البلدين، حيث انعقدت اللجنة المشتركة بين الطرفين في آذار ٢٠١٥، وتم توقيع برتوكول للتعاون العسكري والاستخباري في مجال مكافحة الإرهاب، وعلى صعيد مواز، تم توقيع اتفاق إنشاء المحطة النووية المصرية لتوليد الكهرباء في منطقة الضبع. وزار وفد روسي متخصص في مجال الطاقة النووية محافظة مرسي مطروح حيث من المقرر إقامة المشروع، صاحب ذلك عقد الملتقى المصري الروسي الأول في التطبيقات النووية السلمية بمشاركة أكثر من ثلاثين خبيرًا روسيًا في المجال النووي.

يضاف إلى ما سبق، الاتفاق حول قيام روسيا بتوريد ست شحنات من الغاز الطبيعي المسال سنويًا ولمدة خمس سنوات لمصر في محاولة لسد احتياجات الاستهلاك المحلي المتنامي من المنتجات النفطية والغاز الطبيعي. والاتفاق على إنشاء المنطقة الصناعية الروسية المتخصصة في الصناعات المغذية للسيارات والطائرات والحاسبات الإلكترونية وبعض السلع الهندسية في منطقة محور قناة السويس. والاتفاق على إنشاء منطقة تجارة حرة بين مصر والاتحاد الاقتصادي الأوراسي الذي يضم روسيا وبيلاروس وكازاخستان وأرمينيا، الأمر الذى يفتح أسواقًا جديدة أمام المنتجات المصرية ويعزز الصادرات المصرية لروسيا التي زادت بنسبة ٣٠٪ في الفترة من ٢٠١٥ إلى ٢٠٢١. كما تم الاتفاق على مشاركة روسيا في المشروع المصري لإنشاء المركز اللوجستي العالمي لتخزين الغلال والحبوب وتداولها، ومن المعروف أن روسيا تمد مصر بنحو ٤٠٪ من احتياجاتها من القمح بقيمة ١,١ مليار دولار. كما تتصدر روسيا قائمة الدول المصدرة

للسياحة لمصر، بنحو ٣ مليون سائح سنويًا.

في هذا السياق، بدأ اهتمام قطاع الأعمال الروسي بمصر منذ العام ٢٠١٥، حيث قام وزير الصناعة الروسي بأكثر من زيارة لمصر على رأس وفود ضخمة من رجال الأعمال الروس. ولعل الخطاب السياسي الروسي المؤسس على نهج مضاد للمناهج الغربية في فرض مشروطيات معينة في عمليات التحول نحو الديمقراطية أثر كبير في التقارب بين روسيا وبعض دول الشرق الأوسط وأفريقيا، حيث قال الرئيس بوتين "نشهد أن بعض الدول الغربية تنتهج منهج الضغط والترهيب والابتزاز تجاه حكومات البلدان الأفريقية ذات السيادة. إذ أنها تحاول باستخدام هذه الوسائلباستعادة نفوذها المفقود وهيمنتها الماضية في مستعمراتها السابقة، وتسعى - ولو "بغلاف جديد" - إلى الحصول على الأرباح الزائدة واستغلال القادة بغض النظر عن احتياجات سكانها أو إلى المخاطر البيئية وغيرها من المخاطر".[٩] وطبقًا لهذا الخطاب كانت المخرجات الاقتصادية لقمة سوتشي أكثر من ٥٠ من الاتفاقيات والمذكرات والعقود التي وُقّعت بين روسيا والدول الإفريقية، حيث بلغ إجمالي الحجم المالي للوثائق نحو٨٠٠ مليار روبل (نحو ١٢,٥ مليار دولار).[١٠]

د- العلاقات الروسية الإسرائيلية

في ضوء القوة الإقليمية الإسرائيلية وعلاقتها العضوية بالكتلة الغربية، فإن محددات العلاقات الروسية الإسرائيلية تتبلور في محاولة موسكو تحييد تل أبيب قدر الإمكان بما لا يشكل إضرارًا بمصالح روسيا الاتحادية، وطبقًا لذلك تحتاج موسكو إسرائيل لتقويض الجهود الغربية لوضع روسيا تحت عزلة دولية، فضلًا عن أهمية التنسيق معها في ما يتعلق بسورية نظرًا لطبيعة الدور الإسرائيلي في المعادلات السورية، كما يشكل وزن اليهود من أصول روسية داخل إسرائيل أحد محددات العلاقات بين الطرفين والذي فرض علاقات ثقافية مؤثرة فضلًا عن العلاقات الاقتصادية التي يلعب فيها تصدير السلاح الروسي لإسرائيل أحد أهداف موسكو.

لا يمنع بلورة العلاقات الروسية الإسرائيلية نحو احترام الأوزان المتبادل من وجود أزمات مؤثرة بين الطرفين لسببين، الأول: المخاوف الإسرائيلية من الأدوار الروسية في سورية، والثاني: طبيعة العلاقات الروسية الإسرائيلية .

وقد أنتجت الحرب الروسية على أوكرانيا أحدث الأزمات الروسية الإسرائيلية نظرًا لانحياز إسرائيل الملحوظ نحو أوكرانيا بعد مرحلة من محاولة تل أبيب التوازن بين موسكو وكييف، حيث سعت إلى لعب دور يمنع الاستقطاب الشامل، خصوصًا مع وجود رئيس أوكراني من أصل يهودي. لكن مع تطور الحرب ضاق هامش المناورة المسموح به من جانب واشنطن لإسرائيل، وأصبحت الأخيرة تمارس انحيازًا واضحًا لأوكرانيا، فأنشأت مستشفى ميدانيًا في أوكرانيا، وأرسلت شحنات من معدات الحماية إلى خدمات الطوارئ الأوكرانية، وقرَّرت التصويت لصالح قرار الأمم المتحدة بتعليق عضوية روسيا في لجنة حقوق الإنسان في نيسان.

في المقابل انتقدت موسكو الاعتداءات الإسرائيلية في القدس، وساعدت سورية بإسقاط صاروخ إسرائيلي دقيق التوجيه في خطوة هي الأولى من نوعها. وعلى الرغم من التوتُّر الراهن بين الطرفين لم تقدم إسرائيل دعمًا عسكريًا لأوكرانيا، وذلك تحسبًا، لحرمانها من حرية التحرك العسكري في سورية من جانب موسكو، فضلًا عما يمثله ذلك من دعم الحلف الروسي الإيراني الذي سيكون معاديًا لإسرائيل.

وطبقًا لهذه المعادلات الحرجة، فإن تفاعلات العلاقات الروسية الإسرائيلية سوف تتحدد في المرحلة المقبلة طبقًا لمسارات الحرب الروسية الأوكرانية ونتائجها النهائية.

هـ- العلاقات الروسية بشرق أفريقيا

تبدو كل من السودان وإثيوبيا مرشحين لتنامي النفوذ الروسي، وذلك بعد انتقال الحكم في ٢٥ تشرين الأول في السودان من ناحية، واهتمام سيرجي لافروف وزير الخارجية الروسي بزيارة إثيوبيا بعد اندلاع الحرب على أوكرانيا على خلفية محاولة صناعة دور روسي في أزمة سد النهضة.

على الصعيد السوداني هناك محاولات روسية للحصول على قاعدة عسكرية روسية على الشواطئ السودانية لم تصادف نجاحًا حتى الآن بسبب تأرجح التموضع السوداني على الصعيد الدولي بعد ثورة ٢٠١٨، وهو التأرجح المرتبط بالمعادلات السياسية الداخلية من جهة، وطبيعة الضغوط الغربية على المكون العسكري السوداني في الفترة الانتقالية من جهة أخرى.

وربما يكون من الأهمية بمكان ذكره هنا هو اعتراف نائب رئيس المجلس السيادي السوداني محمد حمدان دقلو بسيادة جمهوريتي دونيتسك ولوهانسك واستقلالهما عن دولة أوكرانيا في أعقاب الغزو الروسي لأوكرانيا مباشرة، وهو ما يؤكد الانتباه العام من القوى الشمولية وغير الديمقراطية لإمكانية الاستفادة من روسيا في هذا التوقيت في مواجهة الضغوط الغربية، حيث أن هذا الاعتراف السوداني بسيادة الإقليمين الأوكرانيين، قد ينتج عنه حصول حميدتي على طائرات درون روسية، الأمر الذي قد يتسبب بخلل في توازنات القوي بين القوات المسلحة السودانية الرسمية وقوات الدعم السريع التي يمكن أن تتحول بسهولة في ضوء هذا الخلل إلى نماذج مثل الحوثي أو حزب الله في المعادلة السياسية السودانية الحرجة أصلًا، وذلك مع ميزة تفضيلية لقوات الدعم السريع التي يمتد نطاقها القبلي (قبيلة الرزيقات) حتى أقصي غرب أفريقيا، وهو ما يعني في التحليل الأخير التأثير على الأمن الإقليمي الإفريقي فضلًا عن استقرار الدولة في كل من تشاد والسودان بالأساس.

في هذا السياق، رشحت تسريبات تم الحصول عليها بموجب علاقات شخصية بوجود تقرير غربي من ٢٥ صفحة سُلّم لأحد القيادات السودانية عن وجود علاقات بين شركة فاغنر الروسية وقوات الدعم السريع، حيث تم رصد تصدير للأسلحة عبر عدد من المطارات في السودان وبعض دول الشرق الأوسط، وهو ما أنكره نائب رئيس مجلس السيادة حميدتي إدراكًا منه بخطورة هذه الاتهامات ليس على الصعيد الداخلي السوداني فقط ولكن أيضًا على الصعيد الدولي .

خاتمة

تشكل النتائج النهائية للحرب الروسية على أوكرانيا أحد أهم آليات قياس الوزن الروسي في النظام الدولي على الصعيد المستقبلي بشكل عام، ووزنها ودورها في منطقتي الشرق الأوسط وشرق أفريقيا على نحو خاص.

وطبقًا للمؤشرات الراهنة فإن نجاح روسيا في ضم المناطق الشرقية لأوكرانيا تحت سيادتها يعني تقسيم أوكرانيا على النحو الذي جرت على أساسه التسوية في الحرب العالمية الثانية بتقسيم ألمانيا، وطبقًا لهذه المعطيات فإن علاقات القوة في النظام الدولي سوف تشهد تغييرًا مؤثرًا ليتجه العالم نحو نظام متعدد الأقطاب، وهو ما تقاومه الولايات المتحدة الأميركية حتى الآن في موقف تبدو فيه وحيدة، خصوصاً مع وجود إمكانية لتحول في الموقف الأوروبي تحت وطأة أمرين، الأول إستراتيجي وهو إدراك أن الانقسام في أوروبا بين روسيا وأوروبا الغربية هو في صالح الولايات المتحدة وليس في صالح أوروبا، وأن فاتورة الانحياز الأوروبي لواشنطن أصبحت باهظة الأثمان دفعت أوروبا فاتورتها كاملة في الحرب العالمية الثانية وفي فترة الحرب الباردة.

الأمر الثاني أن انحياز النظم الأوروبية لواشنطن بات مضادًا لمصالح المواطن الأوروبي الذي يعاني حاليًا من ارتفاع فاتورة الطاقة المؤثرة على مستوى معيشته كنتيجة مباشرة لاستفزازات حلف الناتو لروسيا الاتحادية.

الهوامش

١ د. نورهان الشيخ، **التقرير الإستراتيجي العربي**، ٢٠١٨ مركز الأهرام للدراسات السياسية والإستراتيجية، ص ٢١٠.

٢ د. عمرو عادلي، الحرب الروسية علي أوكرانيا من منظور الاقتصاد السياسي الدولي، ورشة عمل بمركز الأهرام للدراسات الإستراتيجية ،١٢ أيلول ٢٠٢٢.

٣ عبدالله الردادي، مجموعة بريكس، موقع العربية متاح على: https://2u.pw/Eroiw

٤ يونسي وليد، دور القوى الصاعدة، وتأثيرها في النسق الدولي، المركز العربي الديمقراطي، متاح على: https://democraticac.de/?p=43001

٥ أحمد عسكر، مستقبل قوات فاغنر الروسية في منطقة الساحل الإفريقي، مركز دراسات الشرق الأوسط، متاح على http://ncmes.org/ar/publications/middle-east-papers/504-

٦ تقرير التسلح - Trends in international arms transfers, 2020 - SIPRI, (sipri.org, March 2021, (accessed July 29, 2021)، https://bit.ly/3rYl-wba

٧ د. نورهان الشيخ، **التقرير الإستراتيجي العربي**، مرجع سابق.

٨ ماريا المكاحلة، ٣ محاور للعلاقات الروسية الخليجية، آراء حول الخليج، متاح على: https://2u.pw/HJigi

٩ مقتطفات من خطاب بوتين أمام قمة سوتشس في تشرين الأول ٢٠١٩ متاح على https://www.alqarn.dj/dialogue/203

10 Next Russia-Africa summit to take place in 2022, Russkiy Mir, 08.07.2020, (accessed July 31, 2021), https://bit.ly/3ymbjH